المرأة ودراساتها فى السـودان

عبد الله على ابراهيم ـ زينب بشير البكرى

شهدت الآونة الأخيرة عدّة محاولات لتقويم أوضاع دراسات المرأة فى السودان. شملت هذه التقويمات تحليلا لأهم العوامل التى أثرت على هذه الدراسات بالاضافة الى تصنيف لأبرز المواضيع التى بحثتها هذه الدراسات.(١)

أجمعت هذه الكتابات بأنّ دراسات المرأة فى السودان قد مرّت بفترتين. امتدّت الفترة الأولى منذ استقلال السودان فى ١٩٥٦ وحتى منتصف السبعينات ،واتسمت بإهمال ملحوظ لموضوع المرأة. وقد ردّت الكتابات هذا الاهمال الى اعتماد الدارسين فى هذه الفترة مفهوما مغلوطا للتنمية لم تكن المرأة فى إطاره بذات بال فى دفع عجلة تلك التنمية. أمّا الفترة الثانية والتى بدأت بمنتصف الثمانينات فقد اتسمت باهتمام متنام بالمرأة ودورها فى المجتمع. وهذا الاهتمام مردود لتضافر عاملين أساسيين هما أولا، إعلان الأمم المتحدة لعقد المرأة (١٩٧٥ ـ ١٩٨٥). وقد أثر هذا فى تشجيع إجراء الدراسات حول المرأة وعقد المؤتمرات وورش العمل المتخصصة. أمّا العامل الثانى فهو كارثة الجفاف والتصحر التى ضربت السودان منذ أوائل الثمانينات وما نتج عنها من تدفق للمنظمات الدولية ومنظمات الاغاثة خاصة ورغبتهم فى إقامة مشاريع للمرأة أو إدخال نشاطات خاصة بالمرأة فى بعض المشاريع القائمة. وكانت مثل هذه المشروعات تحتاج بالطبع الى توافر معلومات مناسبة حول النساء وأوضاعهنّ فى المجتمع السودانى

اتصفت الدراسات والمعلومات حول المرأة فى هذه الفترة الثانية بالسمات التالية :ـ

(١) جمعت المعلومات فيها على عجل لأغراض معينة تتصل بإقامة المشاريع التنموية أو أغراض المشاركة فى المؤتمرات خارج السودان. ولأنّ هذه المعلومات تجمّعت لأغراض قصيرة المدى كانت الدراسات التى انبنت عليها ضعيفة فى قوامها العلمى والنظرى. علاوة على أنّ عدم نشر هذه الدراسات أدّى الى

محدودية تداولها الذى نتج عنه تكرار كثير فيها سواء فى نوع المواضيع المتداولة أو البيانات المستعملة.

(٢) ركزت الدراسات على مواضيع معينة نذكر منها موضوع نشاطات المرأة الاقتصادية خاصة فى الريف وقطاعه الزراعى بالذات. وحظى موضوع الخفاض وأضراره بعناية عظمى من الدارسين. وقد أقيمت عدّة مؤتمرات وورش عمل حول هذا الموضوع بالذات حتى أهمل ما عداه من مثل المؤثرات الثقافية على حياة المرأة والأنماط الحياتية للنساء فى الحقب التاريخية المختلفة، والمرأة والأسرة، والمرأة والعلاقات الجنسية.

وفى رأينا أنّ إهمال هذه الجوانب من حياة المرأة فى الأبحاث قد ترتب عليه قصور شديد فى الفهم الشامل لأوضاع النساء فى المجتمع السودانى. ومن الناحية العملية فإنّ إهمال العامل الثقافى بالذات قد ساهم كثيرا فى فشل كثير من المشاريع التى حاولت تحسين أوضاع المرأة السودانية.

(٣) غلب على دراسات المرأة التركيز على غرب السودان، جهتى دارفور وكردفان نسبة لتمركز نشاطات المنظمات الدولية ومشاريعها فى هذا الجزء من البلاد. وبالمقابل نجد إهمالا شبه تام لأوضاع المرأة فى بقية مناطق وأقاليم السودان.

(٤) حدوث فجوة بين الدراسات حول المرأة وبين التخطيط القومى والسياسات التى تمس المرأة. فمازالت عملية التخطيط تقوم على أسس ومفاهيم معينة لا تلعب فيها المرأة أى دور سوى دورها كأم وزوجة. وهذا مناف لمساهمة المرأة الأوسع فى مختلف أوجه الحياة. وتتصل هذه النقطة بما ذكرته آنفا حول أنّ هذه الدراسات ظلّت محجوبة لم تبلغ الأوساط الرسمية التى بيدها التخطيط.

تتجه دراسات المرأة فى الثلاث سنوات الماضية نحو "المؤسسية". فقد دخلت دراسات المرأة فى السودان كمادة للتدريس والتدريب والأبحاث فى بعض الجامعات والهيئات ويمكن أن نذكر فى هذا الباب ما يلى:-

(١) تدرّس مادة دراسات المرأة لطلاب السنة الخامسة بشعبة الاجتماع بجامعة الخرطوم.

(٢) تدرّس كورسات قصيرة فى موضوع المرأة والتنمية فى إطار برنامج المرأة والتنمية فى مركز الدراسات والبحوث الانمائية بجامعة الخرطوم. والغرض الأساسى من هذا النوع من التدريب هو رفع مستوى وعى العاملين والعاملات فى بعض الوزارات والمصالح الحكومية وبعض المنظمات غير الحكومية حول أهمية دور المرأة والتنمية وكيفية إدماج عامل النوع (أنثى أم ذكر) فى التخطيط الذى يعرف بالتخطيط اعتبارا للنوع.

(٣) تدرّس مادة دراسات المرأة فى كلّية الاقتصاد والتنمية الريفية بجامعة الجزيرة.

(٤) توجد عدّة نشاطات بكلّية الأحفاد الجامعية منها تدريس مادة دراسات المرأة لطالبات السنة الثالثة بالاضافة الى كورسات قصيرة.

(٥) هناك فكرة إدخال مادة دراسات المرأة فى عدّة جامعات تحت الانشاء يمكن أن نذكر منها كلّية السودان الجامعية للبنات.

وبالاضافة الى التجارب المذكورة فإنّ هنالك اتجاهات لتقوية عملية التوثيق للدراسات ويمكن أن نذكر هنا حالتى برنامج المرأة والتنمية بجامعة الخرطوم وكلّية الأحفاد الجامعية للبنات.

أمّا على الصعيد الحكومى فنجد أنّه ونتيجة لضغط النساء الموظفات بوزارتى التخطيط والزراعة فقد نشأت وحدات للمرأة بهذه الوزارات تعنى بتنسيق عملية التخطيط والمشاريع التى تخص النساء.

وفى هذا الاطار يحوى هذا العدد الخاص من مجلّة الدراسات السودانية عدّة مقالات ومواد روعى فى اختيارنا لها الآتى:-

أولا: أن تتطرّق المقالات لمواضيع أهملت من قبل الدارسين والدارسات. واخترنا موضوع الثقافة مادة لهذا العدد كمدخل لفهم أشمل لأوضاع المرأة فى السودان.

ثانيا: رأينا تشجيع بعض الباحثات الشابات اللائى يعملن بدراسات

المرأة وأن يكون العدد مناسبة لعرض أهم ملامح أبحاثهنّ حول المرأة.
ثالثا: لحل مشكلة تداول الدراسات والكتابات رأينا ترجمة احدى المقالات التى حاولت معالجة موضوع الثقافة والمؤثرات الثقافية على حياة النساء، وهو موضوع ألين قرونبوم الذى تفضل بترجمته الأستاذ هاشم محمد صالح من معهد الدراسات الافريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم.
رابعا: ويحوى الجزء الأخير من العدد ببلوغرافيا لأهم ما كتب عن المرأة السودانية فى السنوات الأخيرة فى محاولة لعرض المعلومات المتوافرة عن المرأة خاصة وأنّ معظمها غير منشور.

نظر الباحثون فى عددنا هذا فى نطاقات أوسع للثقافة، لا تكتفى بوصف الممارسة والأثر الثقافى، وإنّما تلقى بحجر الممارسة والأثر لتنداح منه دوائر متلاحقة من الترميز الكثيف والاشارات الدّالّة. فموضوع الخفاض يلتحم بمفهوم العذرية، والحدود الاثنية، والمناورات الأيدلوجية. كما يفضى موضوع زى المرأة الى الشواغل الاجتماعية والأيدلوجية للمجتمع. وجرّبت بعض المقالات مفهوم "نقد الخطاب" المستحدث لتبلغ الى صورة النساء "كآخر بدائى" فى الخطاب الذكورى الثقافى السائد.

ففى مقالها الموسوم "الاقتصاد السياسى للخفاض الفرعونى"، تبنّت ألين قرونبوم استراتيجية لالغاء الخفاض الفرعونى نظرت فيها الى الخفاض فى الاقتصاد السياسى للممارسة ذاتها، وتفادت بذلك استراتيجيتين تقليديتين. الاستراتيجية الأولى، تلك التى تقيس الوعى بالظاهرة بردها الى ماض سحيق لا داعى لنبشه وانتظار أن تتلاشى الممارسة بالزمن. والاستراتيجية الثانية هى تلك التى تشجب الظاهرة وتريد إصلاحا، السبيل اليه هو التجريح والتأجيج والطرح من أعلى البيوت. فالكاتبة تبحث فى "الكيفية التى تتواءم بها ممارسة خفاض المرأة مع الاقتصاد السياسى للسودان المعاصر، والكيفية التى تؤثر بها على وضع المرأة فى المجتمع السودانى، وكيف يؤثر هذا الوضع على الممارسة". فخفاض المرأة فى نظر الكاتبة يشكل بعضا من عملية تكوين العذرية الاجتماعية للجنس

الأنثوى. فالأنوثة، هوية النوع الأصلية للبنات السودانيات ،مرتبطة بالعذرية ومن ثم القابلية للزواج. وهذه العذرية، المقوّمة كشرط للزواج الذى به أمن وسعادة الفتاة، لا يمكن ضمانها إلاّ بالخفاض . ولأنّه لم يتفق بعد للمجتمع صورة بديلة للأنوثة لا يرتبط فيها الصون بالخفاض ،فإنّ مجرّد الوعى بمخاطر عملية الخفاض قد لا يؤدى الى إلغاء الممارسة .

وتعرّضت الكاتبة بشكل مبتكر الى الاستخدام الأيدلوجى لخفاض المرأة للحفاظ على الهوية الاثنية لسكان شمال السودان والامتيازات التاريخية التى وقعت لهم بواقع التطوّر غير المتساوى للسودان. والوصفان "أغلف" و"مطهّر" يرسمان حدّا إثنيا لتلك الجماعة المميزة تجعل أعضاءها الأصليين يتمسكون بالخفاض فى حين يسعى الأعضاء المستوعبين على تبنّيه خروجا من إثم (الغلفة).. وهذا الواقع الاثنى ممّا يطيل من أمد الخفاض الفرعونى.

وتطرّقت الكاتبة للاقتصاد السياسى للداية التى تشكل ممارسة الخفاض أكثر دخلها، فى حين هى العامل الصحّى الأوسع انتشارا، الذى قد نعلّق عليه الأمل فى التوعية بأخطار الخفاض .

وترهن الكاتبة نهاية ممارسة الخفاض بازدياد الوعى بالظاهرة فى سياقها الاجتماعى. فهى لا تعلّق أملا كبيرا على الرأى العام العالمى البعيد مكانا، والمشغول بأسبقياته الأخرى. وخلافا لذلك تراهن الكاتبة على نشوء وعى وطنى قائم فى حركة اجتماعية تلعب فيها النساء أنفسهنّ دورا قياديا. وهى ترقب إنجاز المرأة السودانية فى مجال التعليم،والعمل حتى يتفق للمجتمع صورة لمساهمة وأمن الأنوثة تتخطى الخفاض .

أمّا سامية الهادى النقر، فهى تدرس مقالها الموسوم " زى المرأة السودانية والتغيّر الاجتماعى: زى المرأة السودانية خاصة فى المدن فى شمال السودان وما طرأ عليه من تغيّرات عبر الزمن وعلاقة ذلك بالتغييرات الاقتصادية والاجتماعية عامّة، وما طرأ على أوضاع المرأة من تغييرات . وعزت الكاتبة أهمية الدراسة الى أنّ الزى قد أصبح شارة للتمايز الاجتماعى بين النساء، ودلالة على السلوكيات ، ولتحوله الى عبء اقتصادى على ميزانية الأسرة ، ولأنّه

موّشر على الشواغل الأيدلوجية والسياسية وضواغطهما وشروطهما لما ينبغى أن تكون عليه المرأة، وموّشر على الاحتكاك بالخبرات اللّبسية والموضات الوافدة، ولأنّه موضوع لا تستقيم دراسات المرأة السودانية الناشئة بدونه.

ودرست زينب عباس فى مقالها المعنون "صورة المرأة فى كتب المطالعة المدرسية"، صورة المرأة فى كتب المطالعة السودانية بالمدارس الابتدائية والمتوسطة، أى الشخصيات النسائية التى ترد فى نصوص هذه الكتب فى مختلف أدوارهنّ وأعمارهنّ. وصورة المرأة المبتغاة هنا هى مفهوم هذه النصوص للمرأة ونظرتها لمساهمة المرأة الانسانية والحياتية بشكل عام. وبتحليل أسلوب النصوص وأجناسها والرسوم المصاحبة لها توصلت الكاتبة الى أنّ تلك الكتب تقدّم صورة وحيدة الجانب للمرأة كربّة بيت محصورة فى الأعمال المنزلية. فهى حتى إن تعلّمت كان القصد أن تحسن تدبير البيت. وقصرت الكتب للمرأة صفات سلبية هى الخجل الشديد والطاعة العمياء والخضوع والمكر وعدم الوضوح، بينما قصرت الصفات الايجابية مثل الثقة فى النفس والوضوح على الرجل، وتطغى فى هذه الكتب سير الرجال على سير النساء. وتبرز شخصية الولد فى هذه الكتب مطلقة الحرية فى الحركة والفعل. ويصبح حتى الوطن والدفاع عنه مربوط بأداء ومبادرة الرجال.

وللقارىء أن يردف قراءته مقال زينب بمذكرة ندى مصطفى المعنونة "سياسات التفرقة: صورة المرأة فى كتب مختارة من منهج المرحلة الثانوية فى السودان"، الذى توصل الى نفس استنتاجات زينب بتحليله كتب مختارة من المرحلة الثانوية. والمذكرة تعتنى بتعريف وبيان مفهومى "نمذجة الأدوار"، و"الشعور" اللذين هما "السلوكيات التى تعتبر مناسبة لفرد ما على أساس التعريف الاجتماعى للنوع، ذكرا أو أنثى". فنمذجة الأدوار هو قصر أدوار بعينها مثل البطولة ورعاية البيت على جنس المرأة دون آخر. أمّا نمذجة الشعور فهو قصر عواطف وانفعالات وملكات بعينها (مثل التصميم، عدم السيطرة على العاطفة)، كطبيعة لا فكاك منها على جنس دون الآخر. ومقال زينب، ومذكرة ندى قراءة دسمة مبتكرة.

ترد فى مقال عبد الله على ابراهيم المعنون " ما خلف الحجاب

فى حكايات المرأة السودانية"،مقدمة نظرية عن موقع النساء فى دراسات الحكاية الشعبية من حيث دلالة هذا الحكى على إشكالاتهنّ الاجتماعية والوجودية ونظرتهنّ للعالم ولأنفسهنّ. تقارن الدراسة وتحلّل حكايات شعبية جرى جمعها من نساء ورجال فى مجتمعى المسبّعات والجعليين، لتبلغ ما أسمته "مثال النساء" (أى صورة النساء عن أنفسهنّ والعالم فى الحكايات التى يدلين بها)، والذى هو مثال مختلف عن "مثال للنساء"، الذى هو صورة الرجل عن المرأة فى الذى يحكيه من قصص. والمفهومان مستقيان من الأنثربولجية الانجليزية شيرلى أردنر.

وتخلص الدراسة الى أنّ "مثال النساء" يؤمّن على سعة قدرات النساء وكفاءتهنّ فى أمر المعاش وإدارة الأسرة. أمّا فى "مثال للنساء"، فالنساء إمّا قمن بدور الكمبارس فى دراما الرجال أو اقتصر دورهنّ على خيانة عهد الزوجية.

نرجو أن يقع هذا العدد موقعا مناسبا فى مسار ووعى المرأة بنفسها ووعينا بها، وفى التعرّف الأمثل على قوامها فى الثقافة وقوامها بالثقافة. وإنّنا لنذكر بالعرفان فضل أسرة تحرير مجلّة الدراسات السودانية ومعهد الدراسات الافريقية والآسيوية اللذين أوليا فكرة إصداره ، ومساره وتنفيذه شغفا وتصميما كبيرين. وإنّنا لنذكر بالعرفان ما بذله الأستاذ فرح عيسى من معهد الدراسات الافريقية والآسيوية والأستاذة آمال حسان فضل الله، من عون تحريرى لم يكن هذا العدد بغيره شيئا مذكورا.

الهوامش

(١) Zeinab El-Bakri, et al The State of Women Studies in the Sudan, (Khartoum, 1985).

زينب بشير البكرى، والواثق محمد كمير،"دراسات المرأة فى السودان": حروف ،سبتمبر (١٩٩٠): ٦٠ – ٦٨ و

Zeinab El-Bakri & E.M. Kameir "Women's Studies & Research in Sudan: Critical Notes, "in Z. El-Bakri & Ruth Besha (eds.) Women & Development in Eastern Africa: An Agenda for Research Organization for Social Science Research in Eastern Africa, 1989.